# جنكيز تشاندار*

## أبو عمّار كما يتذكره صديق تركي

**يروي جنكيز تشاندار قصة علاقته بالرئيس ياسر عرفات، كيف بدأت وتطورت حتى رحيل "الختيار" في باريس في ١١ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٤. يدافع تشاندار بما لديه من "تماه شديد" مع تجربة بيروت الفلسطينية، عن مواقف "القائد التاريخي" للشعب الفلسطيني من دون أي تحفّظ، بل بحماسة الناشط الملتزم الذي تطور لديه "شعور ولاء أعمى، نوع من الطاعة غير العقلانية" تجاه القائد الفلسطيني.**

أذكر جيداً يوم لقائي سري نُسيبة أول مرة. أذكره لأنه كان آخر يوم أرى فيه أبو عمار. لم أكن أعلم، طبعاً، أن ذلك اليوم، ٩ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٢، هو آخر مرة أراه فيها. فهذا الرجل الذي كان له على حياتي وَقْع عاطفي شديد سيرحل بعدما يقارب العامين على وجه التحديد، إذ رحل أبو عمار في باريس في ١١ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٤، وآخر مرة أراه فيها كانت في "المقاطعة" في رام الله.

قبل ذلك بيوم، كنت على موعد مع سري نسيبة الذي كان في سنتَي ٢٠٠١ و٢٠٠٢ ممثل منظمة التحرير الفلسطينية وممثل أبو عمار في القدس. والقدس الشريف، كما يسميها أبو عمار على الدوام، هي أيضاً تجسيد الهوية الوطنية الفلسطينية، وقد خُطّط لها أن تكون في نهاية المطاف عاصمة الدولة الفلسطينية المستقلة. كنت قد سمعت باسم سري نسيبة منذ فترة طويلة، من دون أن تتاح لي فرصة لقائه. وكان سري الذي ربطتني به بعد ذلك صداقة حميمة، قد اشتهر بآرائه الخلافية، إلى درجة تعارضها مع آراء "الختيار"، كما اعتاد المقربون من القائد الفلسطيني التاريخي أن يسموه، وهي كلمة تشير فيما تشير إلى "الرجل الحكيم"، مع أن الاسم الذي عرفه به العالم هو أبو عمار أو ياسر عرفات. وإلى ذلك، فإن سري نسيبة كان دائماً رجلاً مستقيماً وشجاعاً وذا رؤية، ومثقفاً حقيقياً، وكان إلى جانب الراحل

* كاتب وصحافي تركي.
**المصدر**: مقالة بالإنجليزية خاصة بـ "مجلة الدراسات الفلسطينية"، بعنوان: *Abu Ammar Remembered by His Best Turkish Friend*
**ترجمة**: ثائر ديب.

فيصل الحسيني، القائد السرّي لانتفاضة ١٩٨٧ داخل الأراضي المحتلة. وتوقعت أن يكون لقائي به على الإفطار ليلة الجمعة من رمضان المبارك، في تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٢، عشيّة لقائي مع أبو عمار، لقاءً لا يُنسى. وحين التقيته أول مرة في تلك العشية المقدسية، في تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٢، كان مناصراً متحمساً لـ "حلّ الدولتين" الذي لم يكن يحظى في ذلك الوقت بتلك الشعبية بين كثير من الفلسطينيين، بما في ذلك بعض قيادات "فتح".

وفعلاً، بقي لقاؤنا الأول حيّاً في ذاكرتي، وفي لحظة من حديثنا الطويل، سألته إن كان يخشى قيام محاولة لاغتياله بسبب آرائه المعارضة، فأجاب ببرود، ومن دون أن يدهشه السؤال مطلقاً: "هذه ليست بيروت. أنا مقدسي، ومن آل نسيبة. لا يحدث ذلك هنا. لا يمكن أن يحدث هنا." أحسستُ بما كان لدى سري من افتخار راسخ وثقة عميقة بالنفس، فهو ينتمي إلى عائلة أُودعت منذ العهد العثماني مفاتيح كنيسة القيامة، إلى جانب آل الخالدي والحسيني والنشاشيبي، ممّن أعطوا القدس طابعها الفلسطيني القوي وهويتها الفلسطينية المميزة.

لم يكن سري قد وضع كتابه المبدع: "كان لنا وطن: حكاية فلسطيني" الصادر في بيروت عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ٢٠٠٨، لكننا، بطبيعة الحال، تحدثنا لساعات عن ذلك الوطن وعن حياة الفلسطينيين. وكانت حصة الأسد من مناقشتنا هي عن أبو عمار الذي لم يكن يبعد سوى ربع ساعة عن المكان الذي كنا نتناول فيه طعام الغداء في الفندق الوطني، مكان اللقاء التقليدي للوطنيين الفلسطينيين، إذ كان في "المقاطعة"، تحت حصار القوات الإسرائيلية، رهينةً لأريئيل شارون، غير قادر على الحراك، وفي حالٍ غريبة وغير مسبوقة لشخص يحمل لقب "رئيس الدولة". لم يسبق أن تعرض لمثل ذلك شخص يحمل هذا اللقب. كان الإسرائيليون يحاصرون القائد التاريخي للشعب الفلسطيني ويستهدفونه إلى أبعد حد خلال المرحلة الثانية الدموية من مراحل الانتفاضة الفلسطينية، الأمر الذي عنى، رمزياً، أن الشعب الفلسطيني، وقائده من غير منازع، باتا رهينة في يد إسرائيل.

كان ذلك هو الموضوع الرئيسي لحديثي مع سري نسيبة. وعلى الرغم من جميع الصعاب، فإنني كنت أميل، بما لديّ من تماهٍ شديد مع بيروت، وبخلاف سري، إلى الدفاع بحماسة عن موقف أبو عمار الذي يبدو متصلباً في ذلك الظرف التاريخي، وإلى تبريره. كنت أرى أنه لم يبق لدى أبو عمار أي بارقة أمل حيال نيات إسرائيل وقدرتها على التوصل إلى حل سياسي للقضية الفلسطينية. بالنسبة إليه، هو الذي نشأ سياسياً أيام حرب الاستقلال الوطني الجزائرية، كان ثمة حاجة إلى ديغول إسرائيلي لإقامة سلام نهائي مع الفلسطينيين. ففي النهاية، ومن حيث الثقافة السياسية، فإن أبو عمار كان نتاج النضال ضد الاستعمار في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وكان يحسب أنه وقع على ديغول الإسرائيلي في شخص يتسحاق رابين، لكنه تابع شكوكه في عملية أوسلو التي اضطلع بها مع هذا الأخير، وكان لاغتيال رابين، على يد إسرائيلي من جيل الشباب، وَقْع الصدمة على أبو عمار إلى درجة أنه فقد كل أمل بالتوصل إلى اتفاق سلام سياسي حقيقي مع الإسرائيليين. وقلت لسري إن أبو عمار في منتصف سبعينياته، وإن الناس في مثل سنّه ومنزلته يبدأون بمغازلة التاريخ وينشغلون أشد الانشغال على الصعيد الشخصي بالطريقة التي ستذكرهم بها سجلات التاريخ. ولذلك، فإنه لن يروقه المساس باسمه في تلك

السجلات باعتباره الرجل الذي باع مصالح الشعب الفلسطيني الأساسية للإسرائيليين الذين تصالح معهم. وفي مثل هذه السن، وعلى الرغم من أنه لم يحقق هدف الدولة الفلسطينية المستقلة، فإنه يفضل كثيراً أن يُذكر بصفته الرجل الذي حمل لواء الهوية الفلسطينية، ولم يَحْنِ رأسه قطّ إلى أن وافته المنية مكللاً بهذا المجد.

كذلك شاركت سري نسيبة واحداً من همومي الشخصية التي لم يسبق أن أعلنتها، وقلت له إن ما يقلقني أشد القلق، بعد رحيل أبو عمار، هو أن يعود الفلسطينيون إلى ما كان قائماً في ثلاثينيات القرن العشرين، على الرغم من قيام انتفاضة ١٩٣٦، من تشظٍّ مجتمعي عززه الاحتلال الإسرائيلي، وإحلال العصبية المحلية ـ عصبية المقدسيين والنابلسيين والغزّيين والخلايلة، إلخ ـ محل الهوية الوطنية، الأمر الكفيل بأن يودي في النهاية بالقضية. فبالنسبة إليّ، فإن اسم أبو عمار والهوية الوطنية الفلسطينية كانا صنوين.

أصغى سري نسيبة باهتمام إلى نقاشي المسهب عن موضوع أبو عمار، وردّ بصوت ناعم وباختصار شديد، إنما بتلك الفصاحة وذلك الإحكام المتوقعين منه، قائلاً: "هذا، على وجه التحديد، ما يدفعني إلى أن أدافع عن حاجتنا إلى التوصل إلى دولة والرئيس عرفات على قيد الحياة. فهو ذو شخصية رفيعة إلى درجة أن دولة فقط هي التي يمكن أن تعوّض عن غيابه حين يرحل، ومن دونه، لا أحد يستطيع تحقيقها. إن إقامة دولة فلسطينية هي أعظم تركة يخلّفها لنا."

لقد تمكّن أبو عمار من أن يرقى إلى صرحٍ رائع يمكن تسميته دولة فلسطين. كنت أراه، كفرد، تجسيداً للهوية الوطنية الفلسطينية، وكان ممثله في القدس يراه موازياً لمؤسسة بحجم "دولة"، تلك البنية التي كان وحده قادراً على جلبها إلى حيز الوجود.

في اليوم التالي، ذهبت إلى رام الله، إلى "المقاطعة"، كي أرى هذا الرجل التاريخي العظيم، الرجل الذي كثيراً ما شعرت بحنوّه على مدى الأعوام أينما كنت ألتقيه: في أعوام بيروت التي لا تُنسى؛ في جبل تُربل قرب طرابلس؛ في حمام الشط في تونس؛ في الجزائر؛ في أنقرة ـ تركيا؛ في داكار ـ السنغال؛ مرة في موسكو؛ عدة مرات في غزة. عندما صعدت طبقتين في "المقاطعة" مع زوجتي التي كانت تلتقيه للمرة الأولى، ومع القنصل التركي العام في القدس، كنت منفعلاً كحالي في كل مرة قبل رؤيته.

كان أبو عمار وجهاً شديد الألفة بالنسبة إليّ، فقد أمضيت معه ساعات طويلة، لكن خفقان قلبي كان يزداد في كل مرة ألتقيه وأراه. لم أعتد رؤية "الختيار"، اعتدت الانفعال لدى رؤيته، ولم تكن "المقاطعة" استثناء.

عندما بلغنا الطبقة الثانية من "المقاطعة"، كان هناك، يبتسم لنا تلك الابتسامة الدافئة كما كانت الحال دوماً. عرّفته على زوجتي التي كان انفعالها على أشدّه وراحت تغالب الدموع في عينيها، واحتضن أحدهما الآخر، تلك الاحتضانة القوية الطويلة بما يكفي لأن تعكس عواطفي تجاهه. لقد مر وقت طويل لم نر بعضنا فيه على غير العادة، وشعرت كم كنت أفتقده.

كان بالقرب من أبو عمار اثنان من مساعديه، ياسر عبد ربه ونبيل أبو ردينة، وبينما كنا نجلس حول طاولة اجتماعات طويلة في غرفة واسعة ومتقشفة تعكس مأساة الحصار الإسرائيلي المتواصل منذ أشهر، راح أبو عمار يقدّم مساعديه. كان نبيل أبو ردينة وجهاً جديداً بالنسبة إليّ، لكنني كنت أعرف ياسر عبد ربه منذ أعوام طويلة مضت. وبينما كان أبو عمار يخاطبنا بالإنجليزية، أصررت على أن أتحدث إليه

بالعربية على الرغم من أن زوجتي والقنصل العام التركي ما كانا ليفهما، وذلك كي أؤكد له انتمائي إلى القضية الفلسطينية التي سبق أن كنت عضواً كامل العضوية في عدد من منظماتها منذ أوائل سبعينيات القرن العشرين. ولذلك، قلت له بالعربية إن ما من حاجة إلى تعريفي بياسر عبد ربه إذ سبق أن تدربت في معسكر للجبهة الديمقراطية في معلولا، في سورية، في تموز / يوليو ١٩٧١. كانت تلك أخبار جديدة وغريبة على أبو عمار فتحوّل إلى العربية وأشار بإصبعه إلى ياسر عبد ربه، وسألني ساخراً: "ما الذي كنت تفعله مع هؤلاء؟ ما الذي وجدته لديهم؟ هل كنت فاقداً عقلك؟" وانفجرت وياسر عبد ربه بالضحك، بينما لم تفهم زوجتي والقنصل العام التركي حديثنا، لكنهما كانا يتتبعانه وتعابير الحيرة على وجهيهما، في سعي لمعرفة الشيء الذي يمكن أن يكون فَكِهاً على هذا النحو في مثل هذه الأوضاع المأسوية.

كان عرفات يتمتع بحسّ بالدعابة دائم، لم يفقده حتى في حالات التوتر وفي أي ظرف من ظروف الخطر. وربما كان ذلك جزءاً من الثقة بالنفس، وفي جانب منه تحدياً للصعاب، الأمر الذي يرفع الروح المعنوية لدى مَن يحيطون به، ويزيد ولاءهم.

ومن دون أن يضيّع أي ثانية، انتقل أبو عمار إلى حديث بالغ الجدية. كان قلقاً أشد القلق إزاء الحرب الوشيكة على العراق وعواقبها المحتملة على المنطقة. كان يدرك تماماً أن المجيء لرؤيته في "المقاطعة" لم يكن مجرد إظهار للتضامن مع "القضية"، بل تعبيراً عن الولاء الشخصي له أيضاً. وهذا ما كانت عليه الحال، فعلاً. وكما كان الناس موالين له، كان أبو عمار موالياً لمَن يوالونه، بل كان علاوةً على ذلك لطيفاً حيالهم. أدركت ذلك مرة أُخرى ظهيرة ذلك اليوم، ٩ تشرين الثاني / نوفمبر٢٠٠٢ في "المقاطعة"، في رام الله. فحين انتهى اجتماعنا ونهضنا كي نغادر القاعة، انحنيت عليه عند الباب كي أحتضنه مودّعاً، لكنه أخذ بيدي اليسرى في كفه اليمنى ورحنا نمشي يداً بيد، ثم هبطنا درج الطبقتين إلى أن بلغنا المدخل الرئيسي للمبنى الضخم في الطبقة السفلية. كان يسير ببطء شديد، بالطريقة ذاتها التي كان يستعرض بها الحرس الوطني الفلسطيني في ميدان العرض في الفاكهاني، في بيروت، في ١ كانون الثاني / يناير من كل عام.

حين كنت أهبط الدرج المؤلف من نحو خمسين درجة يداً بيد مع أبو عمار، شعرت بأن هذه لحظات وجيزة وتمنيت ألاّ تنقضي أبداً. كان أبو عمار، في حياتي السياسية، الشخص الوحيد الذي تطور لديّ حياله شعور ولاء أعمى، نوع من الطاعة غير العقلانية لم أشعر بها تجاه أي أحد آخر، ولذلك، بدا هبوط الدرج معه يداً بيد أكبر مكافأة في حياتي كلها وأغلاها، كما لو أن الحياة لم تمضِ عبثاً. ولعل شدة عاطفتي هذه لها علاقة بشعور داخلي فحواه أن المرة التي أكون فيها أقرب ما أكون من أبو عمار، هي المرة الأخيرة التي أكون فيها معه. وأثبتت الأيام صحة شعوري هذا عندما وافته المنية في ١١ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٤.

لم يكن أبو عمار مفكّراً، ولم يكن صاحب آراء متفوقة، والقول إنه "عبقري استراتيجي" يبقى محل خلاف شديد. لا ريب في أنه كان داهية من الناحية التكتيكية، لكن الدهاء في هذه المسائل لا يكفي لخلق بطل تاريخي فريد مثله، كما أن خصاله، سواء في المجالات السياسية أو العسكرية، لا تكفي لتفسير الولاء الذي يكنّه له عدد كبير من البشر، وبينهم مَن ليسوا عرباً، مثلي أنا. كان لدى أبو عمار تلك الجاذبية المغناطيسية التي لا سبيل إلى مقاومتها، والتي تشدّ إليه

كل مَن يحالفه الحظ في التعرف إليه عن كثب.

لعل الاضطرابات الكبرى التي شهدها القرن العشرون، والتي أنتجت أبو عمار ومساهمته الفريدة في تاريخ ذاك القرن، هي التي تفسر جوهر جاذبيته التي لا تُقاوَم أو سحره، ولعلها تفسر، أيضاً، تعلّقنا به. بعبارة أُخرى، كان أبو عمار يجسّد في شخصه تعلّق جيلنا بتاريخه، وبتواريخنا الشخصية كأفراد.

لقد نشأنا جميعاً ـ نحن الذين ارتبطنا بـ "الختيار" على صُعد شتى ـ في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، وغالباً في النصف الثاني من القرن العشرين، وفي هذا العالم كانت أفعالنا وردات أفعالنا. تلك كانت الفترات أو العقود المثيرة التي شكلت شخصياتنا، وعلاقاتنا، وحياتنا بكل بساطة، وتلك أيضاً كانت الفترات التي صنعت أبو عمار الذي ترك عليها، بدوره، بصمته القوية، وصاغ التاريخ الذي كان له دور أساسي في صوغنا.

كانت قصة الكفاح الفلسطيني البطولي ـ وخصوصاً فترة ما بعد حرب ١٩٦٧ التي عاشها جيلي مشاركاً وشاهداً ـ قصةً ملحمية وأسطورية في حدّ ذاتها. ومثل هذه الحقب هي ما يحتاج إليه الأبطال الأفراد مثل أبو عمار، وهي ما يزيّنونه ببطولاتهم الفردية، ولذلك، كان هو نفسه أسطورة. وكان أن توافقت هذه الخصال كلها مع تنشئتنا، وشكّلت النسيج العاطفي بيننا وبينه.

تشكلت الروابط بين الشهود الكثيرين على تاريخ القرن العشرين والحالة الفلسطينية ـ وأنا منهم ـ وبين هذا القائد التاريخي، "الختيار"، خلال فترة طويلة، الأمر الذي عرّضها لاختبار حوادث كثيرة في أماكن متعددة وأوقات شتى، وكان هو أساس العلاقة الحميمة معه.

أذكر بوضوح أول مرة رأيت فيها أبو عمار شخصياً. لا بدّ من أن ذلك كان في سنة ١٩٧٢. كنت أتمشى في الطريق الجديدة في الفاكهاني، في بيروت، ولمحته في موقف صغير للسيارات أمام مكتب منظمة التحرير الفلسطينية. كان واقفاً وحده، يداه في جيبَي سرواله، يحدق حوله من خلال نظارته السوداء. بعد دقيقة أو نحوها، نزل من المبنى كمال ناصر، وكان آنذاك الناطق باسم منظمة التحرير الفلسطينية، واستقلا سيارة وغادرا. كان هذا أول لقاء لي عن بعد مع الرجل الذي كنت أعرفه جيداً من شاشات التلفزيون فقط. في تلك الفترة، لم يكن محاطاً بطبقات سميكة من الحراس الشخصيين والأمن، وكان الوصول إليه متاحاً، لكني كنت أشدّ خجلاً من أن أقترب من شخصية دولية مشهورة.

بعد بضعة أسابيع، بينما كنت في مكتب أبو خالد (جورج عسل) في مقر "فتح" في الفاكهاني، دخل أبو عمار الغرفة من الباب المفتوح. كانت تلك أول مرة أرى فيها رأسه الأصلع، من دون الكوفية عليه. وقفنا، أبو خالد وأنا، على الفور، احتراماً، وتلفّظ أبو عمار ببضع كلمات محيياً ومضى. ولم يدعني أبو خالد أغلق الباب، قائلاً: "عندما يكون أبو عمار في المبنى، تُترَك الأبواب كلها مفتوحة لأسباب أمنية."

بعد ذلك بعام، كنت أسير، وأبو خالد إلى يساري، خلف أبو عمار في موكب جنازة ضخم من البسطة إلى مقبرة الشهداء (حيث سيرقد أبو خالد أيضاً). كانت تلك جنازة أبو يوسف النجار وكمال عدوان وكمال ناصر الذين استشهدوا في هجوم إسرائيلي جريء في بيروت، كان الأول من نوعه، في ١٠ نيسان / أبريل ١٩٧٣. أمّا أبو عمار فنجا من ذلك الهجوم الذي تبيّن لاحقاً أنه كان هدفه الرئيسي.

بعد ذلك بخمسة أعوام، كنت، أنا الصحافي التركي الشاب الذي تشير سيرته الذاتية إلى عمله مع المقاومة الفلسطينية، أمام أبو عمار بعد منتصف ليلة من ليالي آذار / مارس ١٩٧٨. كانت إسرائيل تحتل قسماً من الأرض في الجنوب اللبناني، وكان الناطق باسم منظمة التحرير الفلسطينية محمود اللبدي قد رتّب مقابلة بين أبو عمار والصحافي الصديق الذي ينتمي إلى البلد الوحيد العضو في حلف شمال الأطلسي من بلاد المنطقة. كان قلبي يخفق من شدة الانفعال قبل دخول الغرفة الصغيرة في مقر "فتح" في الفاكهاني، لكني سأغدو وجهاً مألوفاً كثيراً في الأعوام التالية إلى حين مغادرة أبو عمار والفلسطينيين بيروت في أعقاب الغزو الإسرائيلي للبنان، في صيف سنة ١٩٨٢.

منذ ذلك الحين فصاعداً، زرت بيروت دائماً، وكثيراً ما شعرت بانتماء خاص إلى هذه المدينة. كنت أعيش في مخيم برج البراجنة للاجئين الفلسطينيين، ولذلك كان ارتباطي بالشعب الفلسطيني والقضية الفلسطينية، وانتمائي إلى بيروت، ارتباطاً متداخلاً. وفي كل مرة كنت آتي إلى المدينة، كان لا بد من أن أرى "الختيار"، وكان في أواخر سبعينيات القرن العشرين قد غدا شخصية دولية بارزة جداً وكثيرة الحضور في وسائل الإعلام العالمية. كان النضال الفلسطيني قد بات في رأس الأجندة السياسية الدولية في أعقاب حرب ١٩٧٣ بين العرب وإسرائيل، واعتلاء أبو عمار منبر الأمم المتحدة، في نيويورك. ولذلك، كان مشغولاً للغاية، وكي أراه، كان عليّ أن أتحلى بالصبر وأنتظر عدة أيام. وحين تسنح الفرصة، كان محمود اللبدي يبلغني بذلك، فأقضي ساعات في مكتب الفاكهاني إلى أن يغدو "الختيار" جاهزاً لاستقبالي في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي.

كان مضيفي ورفيقي الأقرب في بيروت، ميشال نوفل، بارعاً في ابتداع الطرق المختصرة للوصول إلى أبو عمار. ولم يكن مفتاحه الناجع سوى أبو جهاد (خليل الوزير). وفي مهرجان ١ كانون الثاني / يناير ١٩٨٠، كنت قد جمعت عدداً من البرلمانيين الذين يمثلون مختلف الكتل السياسية في تركيا، وكان بينهم شخصيات لها وزنها خدمت في حكومات تركية شتّى. وكانت العلاقات بين الأحزاب التركية في ذلك الوقت متوترة تماماً، وبصورة عامة، لم يكن البرلمانيون من مختلف الأحزاب على ودّ فيما بينهم، غير أنهم كانوا، بعيداً عن الوضع الداخلي في تركيا، توّاقين إلى الاجتماع معاً في رحلة إلى بيروت بمناسبة أول كانون الثاني / يناير، وكانت جائزة سفرهم إلى بيروت هي لقاؤهم بالرجل الأسطوري، أبو عمار.

كان ضيوف "فتح" هؤلاء أول وفد برلماني تركي يزور منظمة التحرير الفلسطينية، وكانت معاملة هذه الثلّة من كبار الشخصيات التركية مثالية. لكن الأيام كانت تمر من دون بارقة تشير إلى موعد اللقاء مع "الختيار". وقال ميشال أن لا داعي للقلق، وأنه كلّم أبو جهاد، وفي منتصف الليلة التالية كان للجميع شرف اللقاء مع ياسر عرفات الذي كان بشوشاً ودافئاً للغاية.

في غضون ذلك، وفيما يتعلق بمواعيدي، فإن ميشال نوفل كان قد وجد وسيطاً هو مساعد جديد لأبو عمار يجيد العبرية كلاماً وكتابة، اسمه عماد شكور. وبتُّ ما إن أصل إلى بيروت ـ وكان ذلك يحدث كثيراً ـ حتى يُعلمه ميشال بأنني في المدينة، وكان ذلك يعني أن ألتقي أبو عمار في أقرب موعد ملائم، وهو ما كان يحدث في بعض الأحيان نحو منتصف الليل في واحدة من ليالي الأيام

التالية. وأذكر، مرة، كيف نقلني ميشال في سيارته بتهوّر من الصنائع إلى الفاكهاني بعد منتصف الليل، في الظلام الدامس الذي كان يلفّ شوارع بيروت الخالية، للقاء أبو عمار في الوقت المحدد، لأن عماد كان قد بلّغنا، ومن دون سابق إنذار، أن علينا أن نذهب للقائه فوراً. المشكلة الرئيسية كانت في عبور الحواجز المتعددة، بما فيها حواجز السوريين، للوصول إليه. عند بعض الحواجز، كان اسم أبو عمار مثل مفتاح يفتح كل باب، أمّا عند بعضها الآخر، فكان مجرد التلفظ بذاك الاسم يثير مشكلة. لكن حظوة رؤيته في ظرف تاريخي كانت بالنسبة إلينا أثمن من أن تحول دونها أي عثرات.

في بعض الأحيان، كانت رؤيته أو اللقاء به، ولا سيما في أيام بيروت، حظوةً وتحدياً في آن معاً، وكذلك كانت الحال خلال وجوده في تونس أيضاً. وثبت أن قرب لبنان من الإسرائيليين ليس السبب الحقيقي لهجماتهم على القيادة الفلسطينية، فالأمر لم يقتصر على استشهاد أبو جهاد في عملية إسرائيلية استعراضية في تونس في سنة ١٩٨٨، بل إن أبو عمار أيضاً كان قد استُهدف قبل ثلاثة أعوام من النهاية المأسوية لأقرب رفقائه في السلاح.

ففي تشرين الأول / أكتوبر ١٩٨٥، كنت في غرفتي في أحد فنادق القاهرة عندما سمعت عن العملية الأبعد مسافة التي قامت بها القوات الإسرائيلية منذ عملية عنتيبي في سنة ١٩٧٦. لقد كانت المسافة بين نقطة انطلاق العملية الإسرائيلية وهدفها، مقرّ أبو عمار في حمام الشط، أكثر من ٢٠٠٠ كم، وجرى في هذه العملية تدمير مقر منظمة التحرير الفلسطينية تماماً. ووفقاً للإسرائيليين، فإن نحو ٦٠ من أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية، بينهم حراس أبو عمار الشخصيون وعناصر من قوة النخبة أو قوة الـ ١٧ التابعة له، قد استشهدوا. أمّا المصادر التونسية فأشارت إلى أن عدد القتلى هو ٥٦ فلسطينياً و٢١٥ تونسياً، والجرحى نحو ١٠٠. وكان الهدف من هذه العملية أبو عمار نفسه.

كنت قد انطلقت من عمّان، وقضيت الليلة في القاهرة، على أن أواصل إلى تونس في اليوم التالي. وكنت قد مكثت طويلاً في عمّان، منتظراً رؤية أبو جهاد الذي كان أرسل لي أن أنتظره. وفعلت. فبعد ليال طويلة أمضيناها ميشال نوفل وأنا في بيت أبو جهاد في بيروت خلال الحصار الإسرائيلي في صيف سنة ١٩٨٢، فإن الحلول ضيفاً على أبو جهاد وأم جهاد في عمّان كان أمراً لا يُنسى. ولذلك تأخرت عن حمام الشط حيث اعتدت أن أرى أبو عمار، وحيث كنت أخطط لرؤيته مرة أُخرى. لكن جسدي اقشعر فعلاً لسماع نبأ العملية الإسرائيلية التي دمرت مقرّه في حمام الشط، ولمشاهدة صور الدمار، وأنا في غرفتي في الفندق في القاهرة.

كان من المفترض بأبو عمار أن يكون في المبنى الذي دُمِّر، وكانت الاستخبارات الإسرائيلية دقيقة في هذا الصعيد. كانت تتابعه بعد أن عاد من الخارج وقضى الليل في مدينة تونس، وكان يفترض به في موعد العملية، أن يكون قد وصل من تونس إلى مقرّه. لقد خطط الإسرائيليون كل شيء بالتفصيل الممل، لكنهم لم يستطيعوا أن يحسبوا أن أبو عمار سيعدل عن رأيه في الطريق إلى حمام الشط ويذهب لتقديم التعازي في مكان ما في تونس. وفي لحظة تدمير مقرّه حيث كان من المفترض أن يكون، وتسويته بالأرض بقنابل ثماني طائرات الإسرائيلية من نوع F-15، كان أبو عمار في طريقه، قريباً من حمام الشط. كان الله كريماً معه مرة أُخرى وأنقذ حياته.

في اليوم التالي كنت في تونس، ولأني كنت قادماً من مكان إقامة أبو جهاد في عمّان، لم يكن عليّ أن أنتظر قط كي ألتقي أبو عمار، بخلاف ما كان يحدث في بيروت. كان أبو عمار ينتظرني في سفارة منظمة التحرير الفلسطينية في تونس، وحين دخلت مكتب حكم بلعاوي، كان جالساً في كرسيه، خلف الطاولة. تعانقنا، ومن دون أن يضيّع ثانية راح يشرح لي. كانت الطاولة ملأى بشظايا القنابل والقذائف التي دمرت مقرّه، وكان يحمل تلك الأجزاء في يديه، ولا يكف عن القول: "يا الله، يا الله"، وعلى وجهه علامات عدم التصديق. لكن ملامحه تبدلت فجأة، وبتّ أمام عرفات ساخط، يصرخ بصوت مرتفع ويختار كلماته بعناية، مصرّاً على التكلم بالإنجليزية وإدانة إسرائيل بأشد العبارات وهو يملي عليّ بيانه. كان سعيداً لوجود صحافي صديق ومتفهم، مواطن بلد عضو في حلف شمال الاطلسي من شأنه أن ينشر كلمته في العالم في التوّ واللحظة.

كان من الطبيعي لأعوام طويلة سابقة، ولقاءات عديدة في أنحاء متعددة من العالم، ولتقاسم لحظات مريرة من النضال الفلسطيني في ظروف خطرة، أن تبني إحساساً بالثقة حيالي لدى أبو عمار. لذلك، كان في قدرته أن يشاطرني بعض المشاعر التي ما كان ليظهرها على الملأ، ومنها شعوره حيال الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد. كان أبو عمار عائداً من واشنطن، بعد المصافحة التاريخية مع يتسحاق رابين وشمعون بيرس في حديقة الورود في البيت الأبيض برفقة الرئيس الأميركي بيل كلينتون، وكان في زيارة رسمية لأنقرة، وقد ذهبت لرؤيته في دار الضيافة في المجمع الرئاسي حيث كان مقيماً. وأسرّ لي بملاحظة عن حافظ الأسد، بينما كان يتحدث عن لحظات وجوده في البيت الأبيض، إذ مال صوبي، وخفض صوته وقال لي وكانت تكسو وجهه ملامح طفل شقيّ: "تعرف، جُنَّ حافظ لوجودي في البيت الأبيض مع القادة الإسرائيليين. ليس لأسباب سياسية أو أيديولوجية، فطوال حياته، وهو ينافسني. هو يحب أن يكون في البيت الأبيض، بدلاً مني. يحب أن يسبقني إلى البيت الأبيض. هو يشعر بالغيرة منّي إلى حدّ الجنون، لأنني أنا مَن ذهب إلى البيت الأبيض، وليس هو!"

كالعادة، كان حديثنا في أنقرة أيضاً بعد منتصف الليل. وبعد فترة من الوقت، خلد إلى النوم، وبقيتُ مع حاشيته، وكنت أعرفهم جميعاً عن كثب منذ أيام بيروت. ولم تمض بضع دقائق على خلوده إلى النوم، حتى أطل من باب غرفة نومه، برأسه الأصلع وملابسه الداخلية. والتفتنا إليه جميعاً مذهولين. بدا طريفاً إلى أبعد الحدود، ومعاكساً تماماً للكاريزما التي لا تضاهى وهو يرتدي زيه العسكري وكوفيته المميزة. وسألني متحيراً عن جهة القبلة، كي يصلي قبل أن ينام. تلك كانت صورة أُخرى لا تُنسى من صور "الختيار" المحفوظة في عقلي.

وممّا هو حيّ في ذاكرتي عن عرفات مشاركتي إياه طعام الغداء ـ وكانت مناسبة نادرة جداً أن أراه في ضوء النهار ـ في مقرّ إقامته في غزة، حين كان ينتزع من السمك الحسك بيديه ويحاول أن يطعمني. كثيراً ما كانت مودة مثل هذه الشخصية التاريخية والملحمية بالغة الأثر لديّ، ومقرونة بالشعور بالفخر بشعور الوفاء القوي تجاه هذا الرجل. نعم، كان أبو عمار رجلاً، بكل ما لهذه الكلمة من معنى بالعربية.

يكاد عرفات يكون، بمفرده، قد جعل للقضية الفلسطينية تلك الأولوية الرفيعة في الأجندة الدولية منذ ستينيات القرن الماضي. فهذا الشعب الذي أُنكر عليه وجوده، وشُتّت

في أصقاع الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ورزح مَن بقي منه في أرضه تحت احتلال دولة قوية تدعمها أقوى قوى العالم، أُحييت هويته وكرامته بفضل فرد واحد. ولا بدّ من أن هذا هو السبب وراء لقب "السيد فلسطين" الذي كان يُطلق عليه في العالم الغربي.

لم يعرف التاريخ نظيراً لأبو عمار. كان فريداً.

بينما كنت أنظر إلى الفوضى في فناء "المقاطعة" من نافذة الغرفة في الطبقة الثانية حيث التقينا آخر مرة، خطر لي أن هذه لا بد من أن تكون جنازته، الجنازة التي يستحقها؛ جنازة تحولت إلى تعبير جامح عن مشاعر الحزن لدى الشعب الفلسطيني. كان كل شيء في "المقاطعة"، في ذلك اليوم، فلسطينياً للغاية.

كان الوقت بعد منتصف الليل. لم يبق أحد في فناء "المقاطعة" سوى حرّاسه الشخصيين. مشيت الى قبره الطريّ المغطى بالزهور. كنت أعلم أن صفحة من التاريخ طُويت، وخصوصاً للفلسطينيين ولجميع الذين عرفوه عن كثب.

كنت أعلم أننا، جميعاً، سنعيش بقية أعمارنا أيتاماً. ■


صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

**نكبة وبقاء: حكاية فلسطينيين ظلوا في حيفا والجليل (١٩٤٨ ـ ١٩٥٦)**

**عادل مناع**

٤٩٦ صفحة ١٢ دولاراً